إنّ الأرض لَتخبر يوم القيامة بكلّ ما عُمل على ظهرها

موجز في تفسير سورة الزلزلة

إعداد: سليمان بيضون

*** السورة التاسعة والتسعون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد «النساء».**
*** سُمّيت بـ«الزلزلة» لابتدائها بقوله تعالى بعد البسملة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.**
*** آياتها ثماني، وهي مدنيّة، وجاء في الحديث النبويّ الشريف: «من قرأها فكأنّما قرأ (البقرة)، وأُعطي من الأجر كمَن قرأ رُبعَ القرآن».**

«وأمّا الزلزلة، فالتضعيف فيها يدلّ على تكرار وشدّة كمّاً وكيفاً، وذكْر المصدر بعد الفعل [المفعول المطلق] يدلّ على تأكّد وشدّة اضافيّة. ثمّ إنّ زلزلة الساعة مطلقة، تشمل الزلزلة الحادثة في أرض المادّة، أو في الناس والمؤمنين بتحوّل الأوضاع والأحوال والظواهر والمقامات، فيتجلّى ما في القلوب والبواطن، ويكشف عنهم الحجب والأستار».

(التحقيق في كلمات القرآن: ٤/ ١٤٣ - بتصرّف)

محتوى السورة

تدور مفاهيم السورة حول محاور رئيسية ثلاثة:

فتتحدّث أوّلاً عن علامات البعث ويوم القيامة، ثمّ عن شهادة الأرض على جميع أعمال العباد، وبعد ذلك تَقسم الناس إلى مجموعتين: صالحة وطالحة، وتبيّن أنّ كلّ مجموعة ترى ثمار عملها.

فضيلة السورة

* عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، أنّه قال: «**مَن قرأها فكأنّما قَرأ (البقرة)، وأُعطي مِن الأَجرِ كمَن قَرأ رُبعَ القرآن**».

* وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنّه قال: «**لا تَملّوا مِن قراءةِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، فإنّه مَن كانت قراءته بها في نوافله لم يُصبه الله عزّ وجلّ بَزلزلةٍ أبداً، ولم يمُت بها ولا بِصاعقةٍ ولا بآفةٍ من آفات الدّنيا حتّى يموت...**».

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ الآية:٣.

أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنا الإنسانُ، إيّاي تُحدّثُ أخبارَها**».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ الآية:٤.

* النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**إنّ الأرضَ لَتُخبر يومَ القيامةِ بِكُلّ ما عُمِل على ظَهرِها**».

** وعنه صلّى الله عليه وآله: «**حافِظوا على الوضوءِ وخير أعمالكُم الصّلاة، وتَحفّظوا مِن الأرضِ، فإنّها أمُّكم، وليس فيها أحدٌ يعملُ خيراً أو شرّاً إلّا وهي مُخْبِرةٌ به**».

*** أمير المؤمنين عليه السلام: «**صلُّوا مِن المَساجِد في بِقاعٍ مُختلفةٍ، فإنّ كلَّ بقعةٍ تَشهدُ لِلمُصلّي عليها يومَ القِيامة**».

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ الآيتان:٧-٨.

* أمير المؤمنين عليه السلام: «**واعلَمْ يا ابنَ آدم أنّ وراءَ هذا أعظم وأفظع وأوجع للقلوب: يوم القيامة، يومٌ لا تُقال فيه عَثرةٌ، ولا يؤخَذُ مِن أحدٍ فِديَةٌ، ولا تُقبَل مِن أحدٍ معذِرَةٌ، ولا لِأحَدٍ فيهِ مستقبَل توبة، ليس إلّا الجزاء بالسيّئات، فمَن كان من المؤمنينَ عمِل في هذه الدّنيا مثقالَ ذرّةٍ مِن خيرٍ وَجَدَه، ومَن كان مِن المؤمنينَ عَمِلَ في هذه الدّنيا مِثقالَ ذرّةٍ مِن شرٍّ وَجَدَه**».

** الإمام الباقر عليه السلام: «..**إنْ كان من أهل النّار قد عَمِلَ مِثقالَ ذرّةٍ في الدّنيا خيراً يَرَه يوم القيامة حسرةً إنْ كانَ عَملَهُ لِغَيرِ الله** «..» **وإنْ كانَ مِن أهلِ الجنّةِ رأى ذلك الشّرَّ يومَ القيامةِ ثمّ غُفِر له**».

قال المفسّرون

«**تفسير الميزان**»: قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، فتشهد على أعمال بني آدم كما تشهد بها أعضاؤهم وكتّاب الأعمال من الملائكة، وشهداء الأعمال من البشر وغيرهم. وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾، اللام بمعنى «إلى» لأنّ الإيحاء يتعدّى بـ«إلى»، والمعنى: تحدّث أخبارها بسبب أنّ ربّك أوحى إليها أن تحدّث، فهي شاعرة بما يقع فيها من الأعمال خيرها وشرّها، متحمّلة لها، يؤذَن لها يوم القيامة بالوحي أن تحدّث أخبارها وتشهد بما تحمّلت، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿..وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..﴾ الإسراء:٤٤، وقوله: ﴿..قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ..﴾ فصلت:٢١، أنّ المستفاد من كلامه سبحانه أنّ الحياة والشعور ساريان في الأشياء وإن كنّا في غفلة من ذلك.

* قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾، الصدور انصراف الإبل عن الماء بعد وروده، وأشتات كـ«شتّى» جمع «شتيت» بمعنى المتفرّق، والمراد بصدور الناس متفرّقين يومئذٍ، انصرافهم عن الموقف إلى منازلهم في الجنّة والنّار، وأهل السعادة والفلاح منهم متميّزون من أهل الشقاء والهلاك، وإراءتُهم أعمالهم إراءتُهم جزاء أعمالهم بالحلول فيه، أو مشاهدتهم نفس أعمالهم بناءً على «تجسّم الأعمال»...

* وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ تفريع على ما تقدّم من إراءتهم أعمالهم، فيه تأكيد البيان في أنّه لا يُستثنى من الإراءة عملٌ خيراً كان أو شرّاً، كبيراً أو صغيراً حتّى مثقال الذرّة من خير أو شرّ، وبيان حال كلّ مَن عمل الخير والشرّ في جملة مستقلّة لغرض إعطاء الضابط وضرب القاعدة.

الآية الجامعة

* عن زيد بن أسلم أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: «علِّمْني ما علّمك اللهُ، فدفعه صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى رجلٍ يعلّمه القرآن، فعلّمه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ..﴾ حتّى بلغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قال الرجل: حسبي. فأخبر بذلك النبيّ ﷺ فقال: **دعْهُ، فقد فَقِهَ الرّجُل**».

لا منافاة بين ما تدلّ عليه الآيتان ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ من العموم وبين الآيات الدالّة على حبط الأعمال، والدالّة على انتقال أعمال الخير والشرّ من نفس إلى نفس كحسنات القاتل إلى المقتول وسيئات المقتول إلى القاتل، والدالّة على تبديل السيّئات حسنات في بعض التائبين ، وكذا في تفسير قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ..﴾ الأنفال:٣٧.

وذلك لأنّ الآيات المذكورة حاكمةٌ على هاتين الآيتين، فإن مَن حبط عملُه الخير محكوم بأنّه لم يعمل خيراً فلا عمل له خيراً حتى يراه، وعلى هذا القياس في غيره.

(تفسير الميزان: ٢٠/ ٣٤٣)

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ..﴾

ملائكة موكَلون بتثبيت الفطرة

العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله

قال الشيخ فخر الدين الطريحي في (مجمع البحرين: ١٢٥/٢) يشرح معنى «معقّبات» في قوله تعالى (الرعد/١١): ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ..﴾:

«المعقّبات: ملائكة اللّيل والنهار يتعاقبون، وهم الحَفَظة يعقبُ بعضهم بعضاً في حِفظه... أو لأنهم يُعْقِبون أقواله وأفعاله فيكتبونها. وقيل: هم عشرة أملاك على كلّ آدميّ، تحفظه من شرّ المهالك والمعاطب. وقيل: هي التسبيحات الأربع، سُمِّينَ بذلك لأنهنّ يَعُدْنَ مرّةً بعد أخرى، يؤيّده ما روي في حديث الدعاء: (معقِّباتٌ لا يَخيبُ قائلهنّ: ثلاثٌ وثلاثون تسبيحة، وثلاثٌ وثلاثون تَحميدة، وثلاثٌ وثلاثون تكبيرة)، أو لأنهنّ يَعْقُبن الصلاة..».

وفي المجلّد الحادي عشر من (تفسير الميزان: ص ٣٠٨-٣١٦) أفرد العلامة الطباطبائي مساحة واسعة لتفسير معنى «معقّبات»، والرابطة بينها وبين ما في تتمة الآية المباركة حول سُنة التغيير الإلهية.

هذا النصّ مختصر ما ورد في الصفحات المشار إليها.

«شعائر»

قوله تعالى (الرعد/ ١١): ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾.

ظاهر السياق أن الضمائر الأربع في ﴿لَهُۥ﴾، و﴿يَدَيۡهِ﴾، و﴿خَلۡفِهِۦ﴾، و﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ مرجعها واحد... ولا مرجع يَصلح لها جميعاً إلا ما في الآية السابقة؛ أعني (الاسم) الموصول في قوله تعالى (الرعد/ ١٠): ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ..﴾.

فهذا الإنسان الذي يعلم به الله سبحانه في جميع أحواله، هو الذي له «**مُعَقِّبات**» من بين يديه ومن خلفه. وتعقيبُ الشيء إنما يكون بالمجيء بعده والإتيان من عَقِبه.

فتوصيف «**المعقّبات**» بقوله: ﴿..مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ..﴾ إنما يُتصوّر [فقط] إذا كان سائراً في طريق، ثمّ طافت عليه «**المعقّبات**» حوله.

وقد أخبر سبحانه عن كون الإنسان سائراً هذا السير بقوله (الانشقاق/ ٦): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾.

وفي معناه سائر الآيات الدالة على رجوعه إلى ربّه، كقوله سبحانه (يس/ ٨٣): ﴿..وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، وقوله (العنكبوت/ ٢١): ﴿..وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾.

معنى «ما بين يدَي الإنسان وما خَلْفه»

١) إن للإنسان وهو سائرٌ إلى ربه «**معقّبات**» تراقبه من بين يديه ومِن خلفه.

٢) من المعلوم أن الإنسان ليس هو هذا الهيكل الجسمانيّ والبدن الماديّ فحسب، بل هو موجود تركّب من نفْس

وبدن، والعمدة في ما يرجع إليه من الشؤون هي نفْسُه؛ فلها الشعور والإرادة، وإليها يتوجّه الأمر والنهي، وبها يقوم الثواب والعقاب، والراحة والألم والسعادة والشقاء، وعنها يصدر صالح الأعمال وطالحها، وإليها يُنسب الإيمان والكفر، وإنْ كان البدن كالآلة التي يُتوسّل بها في مقاصدها ومآربها.

وعلى هذا، يتّسع معنى ما بين يدَي الإنسان وما خلفه فيعمّ:

- الأمور الجسمانية والروحية جميعاً. فجميع الأجسام والجسمانيات التي تحيط بجسم الإنسان مدى حياته، بعضها واقعة أمامه وبين يديه، وبعضها واقعة خلفه.

- وكذلك جميع المراحل النفسانية التي يقطعها الإنسان في مسيره إلى ربّه، والحالات الروحية التي (تعتريه) ويتقلّب فيها من قرب وبُعد، وغير ذلك.

- والسعادة والشقاء، والأعمال الصالحة والطالحة وما ادّخر لها من الثواب والعقاب، كلّ ذلك واقعٌ خلف الإنسان أو بين يديه... ولهذه «**المعقّبات**» التي ذكرها الله سبحانه شأن فيها؛ بما أن لها تعلّقاً بالإنسان.

لا تثبت حالة روحية أو عمل أو أثر عمل إلا بأمرٍ من الله، كما أنه لا يُصيبه الحَبْط ولا يطرأ عليه الزوال إلا بأمرٍ منه سبحانه

لماذا «الحِفظ من أمر الله»؟!

والإنسان - الذي وصفه الله بأنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً - لا يقدر على حفظ شيءٍ من نفسه ولا آثار نفسه الحاضرة عنده والغائبة عنه، وإنما يحفظها له الله سبحانه. قال تعالى: (الشورى/ ٦): ﴿..ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ..﴾، وقال (سبأ/ ٢١): ﴿..وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

وقال يذكر الوسائط في هذا الأمر (الانفطار/ ١٠): ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾.

فلولا حِفظه تعالى إيّاها بهذه الوسائط التي سمّاها «**حافظين**» تارة و«**معقّبات**» أخرى، لَشَمِلها الفناء من جهاتها، وأسرع إليها الهلاك من بين أيديها ومن خلفها.

وكما أنّ حِفظها بأمر من الله عزّ شأنه، كذلك فناؤها وهلاكها وفسادها بأمر من الله؛ لأن المُلْكَ لله لا يدبّر أمره ولا يتصرّف فيه، إلا هو سبحانه.

والملائكة أيضاً، إنما يعملون ما يعملون بأمره. قال تعالى (النحل/ ٢): ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ..﴾. وقال (الأنبياء/ ٢٧): ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.

ومن هنا يظهر أن هذه المعقّبات الحُفّاظ كما يحفظون ما يحفظون بأمر الله، كذلك يحفظونه من أمر الله... فإن جانب الفناء والهلاك و(الضياع) والفساد بأمر الله، كما أن جانب البقاء

والاستقامة والصحّة بأمر الله... فلا يدوم مركّب جسمانيّ إلا بأمر الله، ولا ينحلّ تركيبه إلا بأمر الله، ولا تثبت حالة روحية أو عمل أو أثر عمل إلا بأمرٍ من الله، كما أنه لا (يُصيبه) الحَبْط ولا يطرأ عليه الزوال إلا بأمرٍ من الله، فالأمر كلّه لله وإليه يرجع الأمر كلّه.

وعلى هذا، فهذه المعقّبات كما يحفظونه بأمر الله، كذلك يحفظونه من أمر الله. وعلى هذا ينبغي أن يُحمَل قوله في الآية المبحوث عنها: ﴿..يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ..﴾.

المراد من «التغيير» في الآية

وبما تقدّم، يظهر وجه اتّصال قوله تعالى: ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ..﴾ بما تقدّم من الآية وأنه في موضع التعليل لقوله: ﴿..يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ..﴾. والمعنى:

أنه تعالى إنما جعل هذه المعقّبات ووكّلها بالإنسان يحفظونه بأمره من أمره، ويمنعونه من أن يهلك أو يتغيّر في شيءٍ ممّا هو عليه، لأنّ سنّته جرتْ أن لا يغيّر ما بقومٍ من الأحوال حتّى يغيروا ما بأنفسهم من الحالات الروحية... كأنْ يُغيّروا الشكر إلى الكفر، والطاعة إلى المعصية، والإيمان إلى الشرك؛ فيغيّر اللهُ النعمة إلى النقمة، والهداية إلى الإضلال، والسعادة إلى الشقاء، وهكذا.

والآية، أعني قوله: ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ..﴾ تدلّ بالجملة على أن الله قضى قضاءً حتمَ بنوعٍ من التلازم بين النِّعم الموهوبة من عنده للإنسان، وبين الحالات النفسية الراجعة إلى الإنسان، الجارية على استقامة الفطرة.

فلو جرى قومٌ على استقامة الفطرة وآمنوا بالله وعملوا صالحاً أعقبَهم نِعَمَ الدنيا والآخرة، كما قال (الأعراف/ ٩٦): ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟..﴾. و(هذه) الحال ثابتة فيهم دائمة عليهم ما داموا على حالهم في أنفسهم، فإذا غيّروا حالهم في أنفسهم غيّر الله سبحانه حالهم الخارجية بتغيير النِّعَم نقماً.

ومن الممكن أن يُستفاد من الآية العموم، وهو أن بين حالات الإنسان النفسية وبين الأوضاع الخارجية نوعُ تَلازم، سواء كان ذلك في جانب الخير أو الشرّ.

فلو كان القوم على الإيمان والطاعة وشُكر النعمة عمّهم الله بِنِعَمه الظاهرة والباطنة، ودام ذلك عليهم حتى يغيّروا فيكفروا ويفسقوا، فيُغيّر الله نِعَمه نقماً، ويدوم ذلك عليهم حتّى يغيّروا فيؤمنوا ويطيعوا ويشكروا، فيغيّر الله نِقَمه نِعَماً، وهكذا... ولكنْ ظاهر السياق لا يساعد عليه، وخاصّة ما تعقّبه من قوله: ﴿..وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ..﴾، فإنه أصدق شاهد على أنه يَصِف معنى تغييره تعالى ما بقوم حتّى يغيّروا، فالتغيير لمّا كان إلى السيّئة، كان الأصل - أعني ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ - لا يُراد به إلا الحسنة، (فتأمّل).

قضى الله تعالى قضاءً حتمَ بنوعٍ من التلازم بين النِّعم الموهوبة من عنده، وبين الحالات النفسية الراجعة إلى الإنسان، الجارية على استقامة الفطرة